الباب الثالث

ومضات
من الحديث عن الإنفاق

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

وقفة مع مسألة الإنفاق في سبيل الله تعالىٰ..

التعامل مع الله تعالىٰ أربح بكثيرٍ من التعامل مع الأغيار!

ذلك لأن التعامل مع الأغيار يعتريه المصالح والمآرب ، ويُؤخذ فيه بعين الاعتبار حكاية التعامل بالمثل ونحو ذلك .

أما التعامل مع الله الكريم سبحانه . . . فلا تشوبه أخلاط و شوائب ، إنما يلخص ذلك قوله تعالىٰ ، وذلك في معرض الندب والتخصيص علىٰ الإنفاق في سبيل الله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

ورحم الله الشيخ محمد متولي الشعراوي حين قال ـ معقباً علىٰ هذه الآية ـ : . . . ساعة تسمع ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ ﴾ فذلك أمر عظيم ، لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا؟

لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق في سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطي المعنىٰ العام في قضية التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله ، كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب .

والحق سبحانه وتعالىٰ يريد أن ينبّهنا بكلمة القرض علىٰ أنه يطلب منا

عملية ليست سهلة علىٰ النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس .

والقرض في اللغة معناه قضم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالىٰ يعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة ، وحتىٰ يبيّن للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله : ﴿يقرض﴾ ، إنه المقدر لصعوبتها ، ويقدر الجزاء علىٰ قدر الصعوبة : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ .

وما هو القرض الحسن؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً؟

أولاً إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطي الإنسان ما ييسر له الفرج في موقف متأزم ، وصحيح أيضاً أنك في عملية الجهاد لا تعطي إنساناً بعينه وإنما تعطي الله مباشرة ، وهو سبحانه يبلغنا : أن من يقرض عبادي فكأنه أقرضني ، كيف؟

لأن الله هو الذي استدعىٰ كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه في الدنيا ، فإذا أعطىٰ العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج .

وقوله تعالىٰ : ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ تدلنا علىٰ أن القرض لا يضيع ، لأن القرض شيء تخرجه من مالك علىٰ أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالىٰ يطمئنك علىٰ أنه هو الذي سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس في صورة ما قدمت وإنما في صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة ، إن الأصل محفوظ ومستثمر ، ولذلك يقول تعالىٰ : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا علىٰ أن مصدر المال الذي تقرض

منه لا بد أن يكون من حلال ، ولذلك قيل للمرأة التي تتصدق من مال الزنى : (ليتها لم تزن ولم تتصدّق) .

وقيل : إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله ، في حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه ، لأن الألم في إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة فأنت تخرجها وتفقد الأمل فيها ، لكن القرض تتعلق نفسك به ، فكلما صبرت مرة أتتك حسنة ، كما أن المتصدق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا محتاجاً .

والقرض من المال الذي لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماماً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

أي ساعة تذهب إليه ويأخذ كل منّا حقّه بالحساب ، أي أن المال الذي تقرض منه ينقص في ظاهر الأمر ولكن الله سبحانه وتعالىٰ يزيده ويبسطه أضعافاً مضاعفة ، وفي الآخرة يكون الجزاء[1] .

لكن الفقهاء أكّدوا علىٰ أن يكون المال المتصدّق به والمنفق في سبيل الله ، أن يكون طيّباً حلالاً ، لا أن يكون من الحرام ، مصداق ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما تصدّق أحدٌ بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة فتربو في كفّ الرحمن حتىٰ تكون أعظم من الجبل ، كما يربّي أحدكم فلوّه أو فصيله »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها

---

(١) تفسير الشعراوي : ٢/ ١٠٤٠ـ١٠٤١ .

(٢) صحيح مسلم : ٢/ ٧٠٢ ، سنن الترمذي : ٣/ ٤٠ .

الناس! إن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلىٰ السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنىٰ يستجاب له »[1] .

يُضاف إلىٰ ذلك أن يكون المال المتصدّق به من أجود الأنواع وأحبّها إلىٰ النفس ، لا أن يكون الإنفاق في سبيل الله والصدقات . . . من أردأ الأنواع ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وعلَّق الإمام القرطبي علىٰ هذه الآية بقوله :

. . . والمعنىٰ : لن تكونوا أبراراً حتىٰ تنفقوا مما تحبون ، أي : نفائس الأموال وكرائمها ، وكان السلف رضي الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالىٰ ، فقد ورد في حديث متفق عليه : أن أبا طلحة رضي الله عنه كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحبّ أمواله إليه (بيرحاء) ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس ـ راوي الحديث ـ : فلما أنزلت هذه الآية : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ قام أبو طلحة إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! إن الله تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا

---

(١) صحيح مسلم : ٢/ ٧٠٣ .

﴿تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) ، وإنها صدقة لله ، أرجو برّها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « بخٍ بخ ذلك مال رابح »[1] .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ يشتري أعدالاً من سكر ويتصدّق بها ، فقيل له : هلاّ تصدّقت بقيمتها؟

قال : لأن السكر أحبّ إليّ فأردت أن أنفق مما أحبّ[2] .

ذلك لأن الله تعالىٰ يأخذ بيد عبده إلىٰ الأمور الطيبة ؛ ليفتح أمامه أبواب الخير والحسنات والبرّ ، أمَّا الشيطان فيأخذ بيد العبد البعيد عن خطّ الله إلىٰ التعاسة والشقاء ، وشتان بين الخطين ، وهذا ما جاء صريحاً في مجالات الإنفاق ، حيث يقول الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٧ـ٢٦٨] .

(. . . إن هذه الآية تعطي صوراً تحدث في المجتمع البشري ، وكانت هذه الصور تحدث في مجمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول الله ﷺ دولة الإسلام ، فبعض من الناس كان يُحْضِرُ العِذق من النخل ويعلقه في المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، والعذق هو فرع قوي من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح ، وكان بعضهم يأتي بعذق غير ناضج أو بالحَشَف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنّبهم هذا الموقف ، حتىٰ لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا

---

(١) صحيح مسلم : ٢/ ٦٩٣ ، وللتوسع يراجع فتح الباري لابن حجر : ٣/ ٣٢٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٤/ ١٣٣ .

القول الحكيم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الطيّب الحلال ، فلا تأتي بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه علىٰ أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولا يكون الإنفاق من رُذال ورديء المال .

ويحدد الحق سبحانه وتعالىٰ وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو سبحانه يذكرنا دائماً حين يقول : ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ألا نظن الكسب هو الأصل في الرزق ، لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من الله ، وفي أرض سخرها لك الله ، إنها الأدوات المتعددة التي خصك بها الله وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك ، ولكن الحق يحترم حركة الإنسان وسعيه إلىٰ الرزق فيقول : ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ أي لا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ونعطي الله رديء الكسب وخبيثه ، لأن الواحد منا لا يرضىٰ لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لننفق منه أو لنأكله .

﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي أنك أيها العبد المؤمن لن ترضىٰ لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك ، كأن يعرض عليك البائع شيئاً متوسط الجودة أو شيئاً رديئاً بسعر يقلّ عن سعر الجيد .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالىٰ أن يوضّح لنا بهذه الصورة أوجه الإنفاق :

ـ إن النفقة لا تنقص المال وإنما تزيده سبعمئة مرة .

ـ إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمنّ والأذىٰ .

ـ إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمنّ والأذىٰ .

ـ إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاءً لمرضاة الله .

هذه الآيات الكريمة تعالج آفات الإنفاق سواءً آفة الشح أو آفة المن أو الأذىٰ ، أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس ، أو الإنفاق من رديء المال ، وبعد ذلك يقول سبحانه وتعالىٰ :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

إن الشيطان قد يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم عن الإنفاق في وجوه الخير ، ويغريكم بالمعاصي والفحشاء ، فالغني حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل في قلب المحتاج الحقد ، وأي مجتمع يدخل في قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه ، ويعالج الحق سبحانه هذه المسائل بقوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦ـ٣٧] .

إن الحق سبحانه وتعالىٰ لا يسألك أن تردّ عطاءه لك من المال ، إنما يطلب الحق تطهير المال بالإنفاق منه في سبيل الله ليزيد ولينمو ، وليخرج الضغن من المجتمع ؛ لأن الضغن حين يدخل مجتمعاً فعلىٰ هذا المجتمع السلام ، ولا يُفيق المجتمع من هذا الضغن ، إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله ، فينتبه إلىٰ ضرورة إخراج الضغن منه ؛ لذلك يحذرنا الله أن نسمع للشيطان .

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فالذي يسمع لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلىٰ وعد الله يصبح كمن رجّح عدو الله علىٰ الله ـ أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف ـ إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم ، وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مضلل ، وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الله واسع المغفرة ، كثير العطاء لعباده ، والحكمة تقتضي أن نعرف إلىٰ أي الطرق نهتدي ونسير[1] . . .

يضاف إلىٰ ذلك مسألة إخفاء الصدقات والإنفاق في سبيل الله ، والهدف من ذلك الابتعاد عن الربا والمن ، وأن يكون الهدف هو رضا الله سبحانه وتعالىٰ فقط ، مصداق ذلك قول النبي ﷺ :

« صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »[2] .

والقرآن الكريم حدّد المسألة وأوضحها ، وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

. . . . فإن أظهرتم الصدقة فنعم ما تفعلون ، لتكونوا قدوة لغيركم ، ولتردوا الضغن عن المجتمع ، وإن أخفيتم الصدقة وأعطيتموها الفقراء فإن الله يكفر عنكم بذلك من سيئاتكم ، والله خبير بالنية وراء إعلان الصدقة ووراء إخفاء الصدقة ، والتذييل في هذه الآية الكريمة يخدم قضية

---

(١) تفسير الشعراوي : ٢/ ١١٦١ـ١١٦٣ .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : [مجمع الزوائد : ٣/ ١١٥] .

إبداء الصدقة وقضية إخفاء الصدقة ، فالحق خبير بنية من أبدىٰ الصدقة ، فإن كان غنياً فعليه أن يبدي الصدقة حتىٰ يحمي عرضه من وقوع الناس فيه ؛ لأن الناس حين يعلمون بالغني فلا بد أن يعلموا بإنفاق الغني ، وإلا فقد يحسب الناس علىٰ الغني عطاء الله له ، ولا يحسبون له النفقة في سبيل الله ، لماذا؟ لأن الله يريد أن يحمي أعراض الناس من الناس .

أما إذا كان الإنسان غير ظاهر الغنىٰ فمن المستحسن أن يخفي الصدقة ، وإن أظهرت الصدقة كما قلت ليتأسىٰ الناس بك ، وليس في ذهنك الرياء فهذا أيضاً مطلوب ، والحق يقول : ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي أن الله يجازي علىٰ قدر نية العبد في الإبداء أو في الإخفاء .

إنه باستقراء الآيات التي تعرضت للإنفاق نجده سبحانه يسدّ أمام النفس البشرية كل منافذ الشح ، ويقطع عنها كل سبيلٍ تحدثه به إذا ما أرادت أن تبخل بما أعطاها الله ، والخالق الذي وهب للمخلوق ما وهبه يطلب منه الإنفاق ، وإذا نظرنا إلىٰ الأمر في عرف المنطق وجدناه أمراً طبيعياً ؛ لأن الله لا يسأل خلقه النفقة مما خلقوا ولكنه يسألهم النفقة مما خلقه لهم .

إن الإنسان في هذا الكون حين يُطلب إيماناً منه أن ينفق فلازم ذلك أن يكون عنده ما ينفقه ، ولا يمكن أن يكون عنده ما ينفقه إلا إذا كان مالكاً لشيء زاد عن حاجته وحاجة من يعوله ، وذلك لا يتأتّىٰ إلا بحصيلة العمل .

إذاً : فأمر الله للمؤمن بالنفقة يقتضي أن يأمره أولاً بأن يعمل علىٰ قدر طاقته لا علىٰ قدر حاجته ، فلو عمل كل إنسان من القادرين علىٰ قدر حاجته ، فكيف توجد مقومات الحياة لمن لا يقدر علىٰ العمل؟

إذاً فالحق يريد منا أن نعمل علىٰ قدر طاقتنا في العمل لنعول أنفسنا

ولنعول من في ولايتنا ، فإذا ما زاد شيء علىٰ ذلك وهبناه لمن لا يقدر علىٰ العمل .

ولقائل أن يقال : إذا كان الله قد أراد أن يحنن قلوب المنفقين علىٰ العاجزين فلماذا لم يجعل العاجزين قادرين علىٰ أن يعملوا هم أيضاً؟

نقول لصاحب هذا القول : إن الحق حين يخلق ، يخلق كوناً متكاملاً منسجماً دانت له الأسباب ، فربما أطغاه أن الأسباب تخضع له ، فقد يظن أنه أصبح خالقاً لكل شيء ، فحين تستجيب له الأرض إن حرث وزرع ، وحين يستجيب الماء له إن أدلىٰ دلوه ، وحين تستجيب له كل الأسباب ، ربما ظن نفسه أصيلاً في الكون ، فيشاء الله أن يجعل القوة التي تفعل في الأسباب لتنتج ، يشاء سبحانه أن يجعلها عرضاً من أعراض هذا الكون ، ولا يجعلها لازمة من لوازم الإنسان ، فمرة تجده قادراً ، ومرة تجده عاجزاً .

فلو أنه كان بذاتيته قادراً لما وُجد عاجزٌ ، إذاً فوجود العاجزين عن الحركة في الحياة لفت للناس علىٰ أنهم ليسوا أصلاء في هذا الكون ، وأن الذي وهبهم القدرة يستطيع أن يسلبهم إياها ليعيدها إلىٰ سواهم ، فيصبح العاجز بالأمس قادراً اليوم ، ويصبح القادر بالأمس عاجزاً اليوم ، وبذلك يظل الإنسان منتبهاً إلىٰ القوة الواهبة التي استخلفته في الأرض .

ولذلك كان الفارق بين المؤمن والكافر في حركة الحياة أنهما يجتمعان في شيء ، ثم ينفرد المؤمن في شيء .

يجتمعان في أن كل واحد من المؤمنين ومن الكافرين يعمل في أسباب الحياة لينتج ما يقوته ويقوت من يعول ، ذلك قدر مشترك بين المؤمن والكافر ، والكافر يقتصر علىٰ هذا السبب في العمل فيعمل لنفسه ولمن يعول .

ولكن المؤمن يشترك معه في ذلك ويزيد أنه يعمل لشيء آخر هو : أن يفيض عنه شيء يمكن أن يتوجه به إلىٰ غير القادر علىٰ العمل ، محتسباً ذلك عند الله .

ولذلك قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالىٰ حينما تكلّم عن الزكاة تكلّم عنها مرة مطلوبة أداء ، وتكلم عنها مرة أخرىٰ مطلوبة غاية فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤] .

ولم يقل للزكاة مؤدّون ، فالمؤمنون لا يعملون لقصد الزكاة إلا إن عملوا عملاً علىٰ قدر طاقاتهم ليقوتهم وليقوت من يعول ، ثم يفيض منهم شيء يؤدّون عنه الزكاة ، والحق سبحانه وتعالىٰ يقول في أمر الزكاة :

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

إذاً فحصيلة الأمر أن الزكاة مقصودة لهم حين يقبلون علىٰ أي عمل ، ولقد صارت الزكاة بذلك الأمر الإلٰهي مطلوبة غاية ، فهي أحد أركان الإسلام وبذلك يتميّز المؤمن علىٰ الكافر .

والحق سبحانه وتعالىٰ حين تعرّض لمنابع الشُّح في النفس البشرية أوضح : أن أول شيء تتعرّض له النفس البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص ما عنده ، وقد حذر الرسول ﷺ من الشح في قوله : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم »[1] .

هي كذلك ، ولكن الحق سبحانه أوضح لكل مؤمن أنها تنقص

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٥٧٨) .

ما عندك ، ولكنها تزيدك مما عند الله ، فهي إن أنقصت ثمرة فعلك قد أكملتك بفعل الله لك ، وحين تكملك بفعل الله لك ، يجب أن تقارن بين قوة مخلوقة عاجزة وقوة خالقة قادرة .

ويلفتنا سبحانه : أن ننظر جيداً إلىٰ بعض خلقه وهي الأرض ، الأرض التي نضع فيها البذرة الواحدة ـ أي الحبة الواحدة ـ فإنها تُعطي سبع سنابل في كل سنبلةٍ مئة حبة ، فلو نظر الإنسان أول الأمر إلىٰ أن ما يضعه في الأرض حين يحرث ويزرع يقلل من مخازنه لَما زرع ولما غرس ، ولكنه عندما نظر لما تعطيه الأرض من سبعمئة ضعف أقبل علىٰ البذر ، وأقبل علىٰ الحرث غير هياب ، لأنها ستعوضه أضعاف أضعاف ما أعطىٰ .

وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطي هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء خالق الأرض؟

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

إذاً فقد سدّ الحق بهذا المثل علىٰ النفس البشرية منفذ الشح .

وشيء آخر تتعرّض له الآيات ، وهو أن الإنسان قد يُحرج في مجتمعه من سائل يسأله ، فهو في حرصه علىٰ ماله لا يحب أن ينفق ، ولحرصه علىٰ مكانته في الناس لا يحب أن يمنع ، فهو يعطي ولكن بتأفف ، وربما تعدّىٰ تأففه إلىٰ نهر الذي سأله وزجره ، فقال الحق سبحانه وتعالىٰ ليسد ذلك الموقف :

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

وقول الله : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ يدل علىٰ أن المسؤول قد أحفظه سؤال السائل وأغضبه الإحراج ، ويطلب الحق من مثل هذا الإنسان أن يغفر لمن يسأله هذه الزلة إن كان قد عدَّ سؤاله له ذنباً .

وبعد ذلك يتعرّض الحق سبحانه وتعالىٰ إلىٰ (المنّ) الذي يفسد العطاء ؛ لأنه يجعل الآخذ في ذلة وانكسار ، ويريد المعطي أن يكون في عزة العطاء وفي استعلاء المنفق ، فهو يقول : إنك إن فعلت ذلك ستتعدىٰ الصدقة منك إلىٰ الغير فيفيد ، ولكنك أنت الخاسر ؛ لأنك لن تفيد بذلك شيئاً ، وإن كان قد استفاد السائل ، إذاً فحرصاً علىٰ نفسك لا تتبع الصدقة بالمن ولا بالأذىٰ[1] .

إذاً :

إنّ السرّ وراء تكرار البيان الإلهي لمسألة الإنفاق ، حيث زاد ذلك عن (٧٤) مرة ، يكمن في حضّ المؤمنين علىٰ الإنفاق ، وسدّ منافذ النفس من شحّ وتقتير ، وحبٍّ للمال وحرص عليه ، مثال ذلك قوله تعالىٰ أثناء ذكر صفات المؤمنين المتقين : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] .

وقوله أثناء ذكر الهدف من إنفاق الكافرين ، وهو بذلك يحدّد الفرق بين إنفاق المؤمنين ، وإنفاق الكافرين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦ـ٣٧] .

---

(١) تفسير الشعراوي : ٢/ ١١٦٩ـ١١٧١ .

نسأل الله تعالىٰ أن يجعل في أقوالنا وأعمالنا ، وكل حركاتنا الإخلاص كله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

* * *

obeikandl.com

الفصل الثاني

نماذج فريدة من إنفاق الرعيل الأول رضي الله عنهم..

أ ـ لماذا صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم؟

ما هو السبب الرئيسي وراء العودة إلىٰ دراسة تاريخ الرعيل الأول؟ وما هي الصفات التي كانوا يحملونها ولم يعد الآخرون يحملونها. . .؟

وهل كان الصحابة الكرام جيلاً فريداً لم ولن يتكرر فيما بعد؟ وماذا قال القرآن عنهم؟ وكيف حدّث الرسول صلوات الله عليه عنهم؟!

في الإجابة عن تلك الأسئلة وغيرها نتبيّن السرّ وراء اختيار النماذج الفريدة من حياتهم. . وذلك أثناء حديثنا عن الإنفاق وفضائله .

قال الإمام عليّ رضي الله عنه : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرىٰ اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون صُفراً شعثاً غبراً ، بين أعينهم كأمثال ركب المعزىٰ[1] ، وقد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتىٰ تبتلّ ثيابهم. . .

---

(١) أي : علامة في الوجود تظهر عادةً في جبهة الإنسان من أثر السجود .

وما أجمل وصف الله تعالىٰ لهم : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ٢٩] .

فمن هو الصحابي؟

اعتمد أهل الحديث علىٰ التعريف اللغوي العام للصحابي ، بينما اعتمد أهل الفقه والأصول علىٰ المعنىٰ العرفي للصحابي ، ولكل فريق أدلته في ذلك .

فالصحابي عند أهل الحديث هو : من لقي النبي ﷺ ، يقظة ، مؤمناً به ، بعد بعثته ، حال حياته ، ومات علىٰ الإيمان .

وهذا يشمل كل من التقىٰ بالنبي ﷺ سواءً طالت مجالسته كالخلفاء الراشدين ، أو قصرت مثل الوفود التي كانت تأتيه ، أو الأعراب الذين شهدوا معه حجة الوداع فقط ، أو من غزا مع النبي ﷺ ولو غزوة واحدة كخبيب بن عدي ، ويدخل في ذلك : الذكور والإناث ، والبالغون المميزون : كالحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً ، بل حتىٰ غير المميزين من صغار الصحابة كمحمد بن أبي بكر الصديق الذي وُلد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام .

ولا يدخل في الصحابة مثلاً أصحمة النجاشي : لأنه لم يلق النبي ﷺ .

ولا يدخل في ذلك أيضاً من رآه في المنام ، ولا من لقيه ولم يؤمن به ، كأبي جهل .

وعند أهل الفقه والأصول تعريف أهل الحديث نفسه، ولكن بزيادة :

. . . وطالت صحبته ، وكثر لقاؤه به ، علىٰ سبيل التبع له ، والأخذ عنه ، وإن لم يرو عنه شيئاً .

وأما تعداد الصحابة فذاك أمر مختلف فيه ، بحيث لا يوجد دليل قاطع علىٰ ضبط أعدادهم برقم معين ، لكن ما يُذكر من بعض الأعداد ـ مثال : عدد من رافق الرسول ﷺ في حجة الوداع مئة ألف وأربعة عشر ألفاً ـ ليس إلا من باب أنهم كانوا محصورين في مكان ما ، أو زمان ما .

قال العلامة القسطلاني : وأما عدة أصحابه ﷺ فمن رام حصر ذلك رام أمراً بعيداً ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالىٰ ، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلىٰ أن مات النبي ﷺ ، وتفرقهم في البلدان والبوادي ، والمهم في المسألة ما قاله المحبّ :

طوبىٰ لمن قلبه بالله مشتغل ... يبكي النهار وطول الليل يبتهل
خوف الوعيد وذكر النار أذهله ... والدمع جارٍ علىٰ الخدين ينهمل
الله فضلهم حقاً وشرّفهم ... بالمصطفىٰ وبه قد ضاءت السبل
صلىٰ عليه إلٰه العرش ثم علىٰ ... أهليه والصحب ما حنّت له الإبل

وماذا عن أن الصحابة كلهم عدول؟

يرىٰ الإمام الغزالي أن العدالة هي : عبارة عن استقامة السيرة والدين ، ويرجع حاصلها إلىٰ هيئة راسخة في النفس ، تحمل علىٰ ملازمة التقوىٰ والمروءة جميعاً حتىٰ تحصل ثقة النفوس بصدقه ، فلا ثقة بقول من لا يخاف الله تعالىٰ خوفاً وازعاً عن الكذب ، ثم إنه لا يشترط العصمة من جميع المعاصي ، ولا يكفي أيضاً اجتناب الكبائر ، بل من الصغائر ما يرد به ، كسرقة بصلة ، وتطفيف في حبة قصداً ، وبالجملة : كل ما يدل علىٰ ركاكة دينه إلىٰ حد يستجرىء على الكذب بالأغراض

الدنيوية ، كيف وقد شرط في العدالة التوقي عن بعض المباحات القادحة في المروءة نحو الأكل في الطريق ، والبول في الشارع ، وصحبة الأراذل ، وإفراط المزاح؟[1]

وعند أهل السنة والجماعة جميع الصحابة عدول ، وقد تحدث العلماء مطولاً وبشكل مفصّل في هذه المسألة ، من ذلك قول الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالىٰ :

(. . . اتفق أهل السنّة علىٰ أن الجميع عدول ، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة ، وقد ذكر الخطيب في (الكفاية) فصلاً نفيساً في ذلك فقال : عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم ، وإخباره عن طهارتهم ، واختياراً لهم ـ ثم ذكر بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية ـ ثم قال بعدها :

وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم ، ولا يحتاج أحدٌ منهم مع تعديل الله له إلىٰ تعديل أحدٍ من الخلق ، علىٰ أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ، ونصرة الإسلام ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأبناء ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان واليقين ، والقطع علىٰ تعديلهم ، والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضلُ من جميع الخالفين بعدهم ، والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم ، هذا مذهب العلماء كافة ، ومن يُعْتَمَدُ قوله .

ثم روىٰ بسنده إلىٰ أبي زرعة الرازي قال : إذا رأيت رجلاً ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول

---

(١) المستصفىٰ من علم الأصول : ١٨١ـ١٨٢ .

حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدىٰ إلينا ذلك كله الصحابة ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولىٰ ، وهم زنادقة . اهـ .

ثم قال ابن حجر :

وقال أبو محمد بن حزم : الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً ، دليل ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] .

فيثبت أن الجميع من أهل الجنة ، وأنه لا يدخل أحد منهم النار ، لأنهم المخاطبون بالآية السابقة ، فإن قيل : التقييد بالإنفاق والقتال يخرج من لم يتصف بذلك ، وكذلك التقييد بالإحسان في الآية السابقة ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . يُخرج من لم يتصف بذلك ، وهي من أصرح ما ورد في المقصود ، ولهذا قال المازري في شرح البرهان : لسنا نعني بقولنا : الصحابة عدول ، كل من رآه ﷺ يوماً ، أو زاره لماماً ، أو اجتمع به لغرض وانصرف عن كثب ، وإنما نعني به الذين لازموه وعزّروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون . اهـ .

ثم نقل ابن حجر رحمه الله أقوالاً كثيرة في ذلك ، منها :

قال بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها علىٰ الله عز وجل » .

وروىٰ البزار في مسنده بسند رجاله موثوقون ، من حديث سعيد بن المسيب ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اختار أصحابي علىٰ الثقلين سوىٰ النبيين والمرسلين » .

وقال عبد الله بن هاشم الطوسي ، حدثنا وكيع ، قال : سمعت سفيان يقول في قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] . قال : هم أصحاب محمد ﷺ)[1] .

وأهم السمات والخصائص التي تحلّىٰ بها الصحابة الكرام :

أنهم أحبوا الدين أكثر من أي شيء ، وعرفوا حدودهم ، وتساموا عن الحقد والبغض ، ونصروا الدين أكثر مما بايعوا عليه ، وركزوا علىٰ الهدف وابتعدوا عن الاختلاف ، واقتنعوا بالجلوس في المقعد الخلفي ، وأعطوا الأمور قدرها وحقها ، وارتقوا ارتقاء الشجرة . . . .

لذلك أورد البيان الإلهي في عدة سور آيات وآيات تتحدث عن فضائلهم ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٢ـ١٧٤] .

وكذلك جاء مدحهم علىٰ لسان المعصوم عليه الصلاة والسلام ، من ذلك قوله : « ليبلّغ الحاضر الغائب ، الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي

---

(١) باختصار وتصرف من كتاب : الإصابة في تمييز الصحابة : ١/ ١٠ـ١٥ .

أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذىٰ الله ، ومن آذىٰ الله يوشك أن يأخذه ، ومن يأخذه الله فيوشك أن يفلته »[1] .

أجل!

لقد نال الصحابة الكرام المقام العالي وذلك لتقديمهم الغالي والنفيس في سبيل نصرة هذا الدين الحنيف ، فكانوا بحق خير أمة أخرجها الله للناس ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وحشرنا معهم[2] .

ب ـ نماذج فريدة من إنفاق الرعيل الأول!!

عاش الرعيل الأول مع القرآن الكريم يتنزّل غضاً طرياً ، ويشرحه رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله ، مما جعل كل حركاتهم تصطبغ بتعاليم القرآن والسنة .

لذلك انطلقوا في مجالات الإنفاق ، مما جعل التاريخ يقف عاجزاً أمام تراجم حياتهم ، ثم يتساءل : أهؤلاء بشر أم ملائكة؟!

لذلك سنتوقّف عند بعض النماذج التي تدلّ وبكل وضوح على مدىٰ تطبيقهم لهذا الخلق الرفيع . . . :

فمن ترغيب النبي ﷺ في الإنفاق ـ وهو علىٰ سبيل المثال لا الحصر ـ ما أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال :

أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : « يا أيّها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً ، فأحسنوا صحبة

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٨٦٤) .

(٢) للتوسع يراجع كتاب : فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف : ١٦٩ـ١٩٧ .

الإسلام بالسخاء وحسن الخلق ، ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلّقاً بغصن منها حتىٰ يورده الله الجنة ، ألا إن اللؤم شجرة في النار وأغصانها في الدنيا ، فمن كان منكم لئيماً لا يزال متعلقاً بغصن منها حتىٰ يورده الله في النار ، ـ قال مرتين ـ : السخاء في الله ، السخاء في الله »[1] .

*** وأما في مجال ترغيب النبي ﷺ وأصحابه في الإنفاق :**

فقد أخرج البزّار والترمذي عن عمر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه ، فقال : « ما عندي ما أعطيك ، ولكن ابتَعْ عليَّ شيئاً فإذا جاءني شيء قضيته » .

فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله! قد أعطيته فما كلّفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلوات الله عليه قول عمر .

فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله! أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، فتبسّم رسول الله ﷺ وعرف التبسّم في وجهه لقول الأنصاري .

وقال : « بهذا أُمرت »[2] .

. . . . وأخرج الطبراني والبزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ علىٰ بلال رضي الله عنه وعنده حُبَر[3] من تمر فقال : « ما هذا يا بلال؟ »

قال : أعدُّ ذلك لأضيافك .

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي : ٣/ ٣١٠ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي : ١٠/ ٢٤٢ ، البداية والنهاية ٦/ ٥٦ .

(٣) جمع حبرة ، وهي ما جمع بلا كيل ولا وزن .

قال : « أما تخشىٰ أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً »[1] .

. . . وأخرج الطبراني والبزار عن عبيد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال لي أبو ذر رضي الله عنه : يا بن أخي! كنت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده ، فقال لي : « يا أبا ذر! ما أحبُّ أن لي أُحُداً ذهباً وفضة أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت أدعُ منه قيراطاً »

قلت : يا رسول الله! قنطاراً؟

قال : « يا أبا ذر! أذهبُ إلىٰ الأقلّ وتذهب إلىٰ الأكثر ، أريد الآخرة وتريد الدنيا ، قيراطاً! » فأعادها عليّ ثلاث مرات[2] .

. . . وأخرج الترمذي وأبو داود والدارمي عن عمر رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدّق ، ووافق ذلك مالاً عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر رضي الله عنه إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال الرسول ﷺ : « ما أبقيت لأهلك؟ »

قلت : أبقيت لهم مثله .

وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : « يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ »

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

قلت : لا أسبقه إلىٰ شيء أبداً![3] .

. . . (وأخرج العسكري عن عبيد الله بن محمد بن عائشة قال :

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري : ٢/ ١٧٤ .
(٢) مجمع الزوائد : ١٠/ ٢٣٩ .
(٣) منتخب كنز العمال : ٤/ ٣٤٧ .

وقف سائل علىٰ أمير المؤمنين عليّ فقال للحسن : اذهب إلىٰ أمك ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فقل لها : تركت عندك ستة دراهم فهات منها درهماً .

فذهب ثم رجع فقال : قالت : إنما تركت ستة دراهم للدقيق .

فقال علي : لا يصدق إيمان عبدٍ حتىٰ يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، قل لها : ابعثي بالستة دراهم .

فبعثت بها إليه فدفعها إلىٰ السائل ، قال : فما حلّ حبوته حتىٰ مرّ به رجل معه جمل يبيعه ، فقال عليّ : بكم الجمل؟

قال : بمئة وأربعين درهماً .

فقال علي : اعقله علىٰ أن نؤخرك بثمنه شيئاً ، فعقله الرجل ومضىٰ ، ثم أقبل رجل فقال : لمن هذا البعير؟

قال عليّ : لي .

فقال : أتبيعه؟

قال : نعم .

فقال : بكم؟

قال : بمئتي درهم ، قال : قد ابتعته ، قال : فأخذ البعير وأعطاه المئتين ، فأعطىٰ الرجل الذي أراد أن يؤخره مئة وأربعين درهماً وجاء بستين درهماً إلىٰ فاطمة رضي الله عنها ، فقالت : ما هذا؟

قال : هذا ما وعدنا الله علىٰ لسان نبيه ﷺ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠])[1] .

---

(١) كنز العمال : ٣/ ٣١١ .

* وهكذا كان الرعيل الأول ينفقون مما يحبّون ، وهذا تطبيق لتعاليم الله ورسوله ﷺ ، ومن الأمثلة علىٰ ذلك :

أخرج الأئمة الستة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أصاب عمر بخيبر أرضاً ، فأتىٰ إلىٰ النبي ﷺ فقال : أصبتُ أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه ، فكيف تأمرني به؟

قال : « إن شئت حبست أصلها ، وتصدّقت بها » .

فتصدَّق بها عمر رضي الله عنه أنه لا يباع أصلها ، ولا يوهب ، ولا يورث ، وتصدّق بها في الفقراء والقربىٰ والرقاب ، وفي سبيل الله والضيف ، لا جناح علىٰ من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير متموّل[1] .

. . . وأخرج ابن سعد وأبو نعيم عن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما نزل الجحفة وهو شاك[2] ، فقال : إني لأشتهي حيتاناً ، فالتمسوا لي ، فلم يجدوا إلا حوتاً واحداً ، فأخذته امرأته صفية بنت أبي عبيد فصنعته ثم قربته إليه ، فأتىٰ مسكين حتىٰ وقف عليه .

فقال له ابن عمر : خذه ، فقال أهله : سبحان الله ، قد عنَّينا ومعنا زاد نعطيه؟! فقال : إن عبد الله يحبّه!![3]

. . . . وأخرج الطبراني وابن سعد عن نافع قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرّبه لربه عز وجل .

قال نافع : وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمَّر أحدهم فيلزم

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير : ٧/ ٢٣٢ ، نصب الراية للزيلعي : ٣/ ٤٧٦ .
(٢) أي : مريض .
(٣) طبقات ابن سعد : ٤/ ١٢٢ ، حلية الأولياء : ١/ ٢٩٧ .

المسجد ، فإذا رآه ابن عمر رضي الله عنهما علىٰ تلك الحالة الحسنة أعتقه ، فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن! والله ما بهم إلا أن يخدعوك!

فيقول ابن عمر : فمن خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له .

قال نافع : فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر علىٰ نجيب[1] له قد أخذه بمال عظيم ، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ثم نزل عنه ، فقال : يا نافع! انزعوا زمامه ورَحْله ، وجلِّلوه وأشعروه وأدخلوه في البُدْن .

وفي رواية أخرىٰ عنده أيضاً عن نافع قال : بينا هو يسير علىٰ ناقته - يعني ابن عمر - إذ أعجبته فقال : إخ إخ ، فأناخها ثم قال : يا نافع ، حُطَّ عنها الرَّحل ، فكنت أرىٰ أنه لشيء يريده أو لشيء رابه منها ، فحططت الرحل ، فقال لي : انظر هل ترىٰ عليها مثل رأسها؟

فقلت : أنشدك إنك إن شئت بعتها واشتريت بثمنها .

قال : فجلّلها وقلّدها وجعلها في بُدْنه ، وما أعجبه من ماله قط إلا قدّمه .

وعنده أيضاً عن نافع عن ابن عمر : أنه كان لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله عز وجل ، قال : وكان ربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وكان لا يُدمنُ اللحم شهراً إلا مسافراً أو في رمضان . . . .[2]

* وكان الرعيل الأول لا يدعون باباً من أبواب الإنفاق إلا شاركوا فيه! حتىٰ لو كانوا في أشدِّ الحالات :

---

(١) النجيب من الإبل : القوي منها ، الخفيف السريع .

(٢) طبقات ابن سعد : ٤/ ١٢٣ ، مجمع الزوائد : ٩/ ٣٤٧ .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلىٰ رسول الله ﷺ ببردة ـ وهي شملة منسوجة فيها حاشيتها ـ فقالت : يا رسول الله جئتك أكسوك هذه ، فأخذها رسول الله ﷺ وكان محتاجاً إليها فلبسها ، فرآها رجل من أصحابه فقال : يا رسول ما أحسن هذه ، اكسُنيها!

فقال : « نعم » .

فلما قام رسول الله ، لامَهُ أصحابه وقالوا : ما أحسنت حين رأيت رسول الله ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفتَ أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه!!

قال : والله ما حملني علىٰ ذلك إلا رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ لعليّ أكفّن فيها[1] .

. . . وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : إني مجهود ، فأرسل إلىٰ بعض نسائه فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء!

ثم أرسل إلىٰ أخرىٰ فقالت مثل ذلك ، حتىٰ قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، فقال : « من يضيّف هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » .

فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلىٰ رَحْله فقال لامرأته : هل عندك شيء؟ قالت : لا ، إلا قوت صبياني ، قال : فعلّليهم بشيء ، فإذا أرادوا العشاء فنوّميهم ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل!

فلما قعدوا . . وأكل الضيف وباتا طاويين ، ولما أصبح غدا علىٰ

---

(١) كنز العمال : ٤/ ٤٢ .

رسول الله ﷺ ، فقال : « قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما »

وأنزل الله قوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

وفي رواية أن تسمية هذا الأنصاري أبو طلحة رضي الله عنه[١] .

. . . وأخرج الطبراني والبزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

قال أبو الدحداح رضي الله عنه : يا رسول الله! إن الله يريد منا القرض؟

قال : « نعم يا أبا الدحداح » .

قال : أرنا يدك ، فناوله يده ، فقال : أُشهد الله أني قد أقرضت ربي حائطي ـ وحائطه فيه ستمئة نخلة ـ .

فجاء يمشي حتىٰ أتىٰ الحائط وأم الدحداح فيه وعيالها ، فنادىٰ : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ، فقالت : ربح البيع أبا الدحداح ، ربح البيع أبا الدحداح!![٢]

* وفي مجالات الجهاد في سبيل الله سطّر الرعيل الأول صحائف في الإنفاق والبذل والعطاء ما لم يشهد بمثله التاريخ أبداً :

أخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلىٰ النبي ﷺ بألف دينار حين جهّز جيش العسرة ، ففرّغها في حجر النبي ﷺ ، قال : فجعل النبيّ يقلّبها ويقول : « ما ضرّ عثمان ما عمل بعد هذا اليوم » .

---

(١) فتح الباري : ٨/ ٤٤٦ ، تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٣٨ .

(٢) مجمع الزوائد : ٣/ ١١٣ ، الإصابة : ٤/ ٥٩ .

وفي رواية أخرىٰ قال النبي ﷺ : « غفر الله لك يا عثمان ، ما أسررت وما أعلنت ، وما أخفيت ، وما هو كائن إلىٰ أن تقوم الساعة ، ما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا »[١] .

. . . وأخرج أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : بينما عائشة رضي الله عنها في بيتها إذ سمعت صوتاً في المدينة ، فقالت : ما هذا؟

قالوا : عير لعبد الرحمن ابن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء .

قال : وكانت سبعمئة بعير ، قال : فارتجّت المدينة من الصوت ، فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً » .

فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال : لئن استطعتُ لأدخلنّها قائماً ، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله عز وجل[٢] .

. . . . . وأخرج الشيخان ـ واللفظ لمسلم ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً » .

قالت : فكنّ يتطاولن أيتهنّ أطول يداً ، قالت : وكانت أطولنا يداً زينب بنت جحش لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدّق .

وفي رواية أخرىٰ : وكانت زينب امرأة صَناع اليدين[٣] ، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدّق به في سبيل الله[٤] .

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣/ ١٠٢ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ٩٣ .
(٣) أي : حاذقة ماهرة بعمل اليدين .
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة : ٤/ ٣١٤ ، مجمع الزوائد : ٨/ ٢٨٩ .

وهكذا كان حال الرعيل الأول مع الفقراء والمساكين وأهل الحاجة :

أخرج أبو عبيد في « الأموال » عن عمير بن سلمة الدؤلي رضي الله عنه قال : بينا عمر رضي الله عنه نصف النهار قائلٌ في ظل شجرة وإذا أعرابية ، فتوسّمت الناس فجاءته ، فقالت : إني امرأة مسكينة ولي بنون ، وإن أمير المؤمنين عمر كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً فلم يعطنا ، فلعلك ـ يرحمك الله ـ أن تشفع لنا إليه .

قال : فصاح بيرفأ أن ادع محمد بن مسلمة ، فقالت : إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه ، فقال : إنه سيفعل إن شاء الله .

فجاءه يرفأ ، فقال : أجب ، فجاء فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فاستحيت المرأة منه ، فقال عمر : والله ما آلو أن أختار خياركم ، كيف أنت قائل إذا سألك الله تعالىٰ عن هذه؟

فدمعت عينا محمد ، فقال عمر : إن الله بعث إلينا نبيه ﷺ فصدّقناه ، واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتىٰ قبضه الله علىٰ ذلك ، ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنّته حتىٰ قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن أختار خياركم ، إن بعثتك فأدّ إليها صدقة العام وعام أول وما أدري لعلي لا أبعثك ، ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقاً وزيتاً وقال : خذي هذا حتىٰ تلحقينا بخيبر ، فإنا نريدها ، فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين ، فقال : خذي هذا فإن فيه بلاغاً حتىٰ يأتيكم محمد ، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول ! !(١)

---

(١) كنز العمال : ٣/ ٣١٩ .

. . . . . وأخرج مالك في الموطأ أنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف .

فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه .

فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه .

فقالت : أعطيه إياه .

قالت : ففعلت ، فلما أمسينا أهدىٰ لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا شاة وكفنها[1] .

فدعتني عائشة رضي الله عنها فقالت : كلي من هذا ، هذا خير من قرصك ! ![2]

أجل !

لقد سطّر التاريخ صحائف بيضاء بخطوط من نور ، حيث الحكايات الرائعة والتي تروي سيرة حياة الرعيل الأول رضوان الله عليهم في :

الإنفاق في سبيل الله ، وخاصة في حركة الجهاد ، وإطعام الطعام ، وإكساء الحلل ، والفرض للمولود و . . .

بل كانوا يخافون علىٰ بسط الدنيا ، ويبكون في حالة وصول الأموال و . . . ، وذلك بسبب زهدهم بالدنيا والخروج عنها دون تلبس بها . . .[3]

ولذلك نالوا الدرجات العلىٰ :

---

(١) أي : ما يغطيها من الرغفان .

(٢) الموطأ : ٢٩٠ـ٢٩١ .

(٣) للتوسّع في ذلك يراجع : حياة الصحابة للكاندهلوي ، وصفة الصفوة لابن الجوزي . . . .

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

* * *

obeikandl.com